أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

نقد ابن تيمية لمذاهب الاتحادية والقائلين بوحدة الوجود

للأستاذ عبد الفتاح الديدي

— ١ —

نتساءل مقدما عن الأسباب التي حملت ابن تيمية على هذا النقد :

إن ابن تيمية كما نعرفه ، هو رجل من أتباع المدرسة الفقهية التي أنشأها ابن حنبل في تاريخ الفكر الإسلامي لأول مرة . وقديما حمل ابن حنبل على ذلك الفريق من المتصوفة الذي ذهب إلى حد القول بأن الفناء في الذات الإلهية يمكن أن يتم عن طريق المجاهدة وأخذ النفس بألوان من الرياضات على نحو ما علمنا من كل من أبي يزيد "بسطامي والحلاج وأمثالهما من أصحاب الأذواق ، وأرباب الأحوال .

فالنزاع بين الفقهاء والصوفية يرجع إلى زمن متقدم جدا على العصر الذي عاش فيه ابن تيمية والهجمات التي تعرض لها الصوفية إنما كانت تتوالى عليهم بصور قوية ، حينا ، وفاترة حينا آخر طوال القرنين الثالث والرابع الهجريين .

ولئن كان ظهور الصوفية قد بدأ في منتصف القرن الثاني الهجري ، فإن النزاع الحقيقي قد بدأ

(بقية المنشور على الصفحة السابقة)

به ، وقد سألها إبراهيم : « ما طعامكم وما شرابكم ... ؟ قالت : طعامنا اللحم ، وشرابنا الماء ، قال : اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم » ، ورحل الخليل وقد ترك لابنه رسالة ، وجاء إسماعيل وسألها : « هل أتاكم من أحد ؟ قالت : نعم أتانا شيخ حسن الهيئة ، وأثنت عليه فسألني عنك فأخبرته ، فسألني : كيف عيشنا فأخبرته : أنا بخير . قال : فأوصاك بشيء ؟ قالت : نعم . هو يقرأ عليك السلام ، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك قال : ذاك أبي ، وأنت العتبة ... » ا ﻫ .

وتدل هاتان الزيارتان على مدى اهتمام الخليل بأمر ولده ، ورعايته شأنه ، والمشاركة في إصلاح أمره في حنان موصول وبر كامل .

ثم أمر الخليل ببناء البيت فقدم مكة ، واتجه إلى ولده فوجد : « إسماعيل يبري نبلا تحت دوحة قريبا من زمزم ... فقال : يا إسماعيل ، إن ربك عز وجل أمرني أن أبني له بيتا ، فقال : أطع ربك عز وجل . قال : إنه قد أمرني أن تعينني عليه فقال : إذن أفعل » .

وارتفع البيت ليكون مأثرة من ملة أبينا إبراهيم وشعيرة وطاعة إلى يوم الدين ؟

علي الخطيب
مجمع البحوث الإسلامية

فى مستهل القرن الثالث أى بعد أن اشتهر أمر مدرستى : الكوفة والبصرة وفى منتصف القرن الثالث بدأت تنشأ فى العاصمة العباسية ثقافة جديدة لها طابع خاص بها يوافق الثقافة العباسية الإسلامية . وانحدرت إلى العاصمة الجديدة بعض أفكار ونزعات تصوفية كان من آثارها تكوين مدرسة بغداد الصوفية التى يمثلها المحاسبى . وهذه المدرسة قد برئت فى الغالب من معظم الاتهامات التى نسبت إليها ومع ذلك فقد عاشت إلى جوارها مدرسة الحنابلة الذين فطروا بطبيعة مذهبهم المتشدد فى الأمور الفقهية والكلامية على ضرب من الزهد . وهذا هو الذى أتاح فرصة مناوشة كل من الفريقين للآخر . فحمل ابن حنبل على الصوفية وقال : إنهم أصل البلية فى حوادث (جهم) . وتوالت الأزمات بين الفريقين، ووصل الأمر بالحنابلة أن حملوا الدولة على الوقوف من الصوفية نفس الموقف الذى اتخذته بإزاء الزنادقة أيام المهدى . وأفلحوا فى النهاية فى التدخل فى أمر الحلاج والقضاء بقتله لما نسب إليه من الزندقة ولم يقف الأمر عند هذا الحد : بل استمر النزاع متمثلا فى اعتقاد الفقهاء بأن الصوفية : أهل بواطن وقلوب وأصحاب أشواق ومواجيد مما لا سبيل إلى أن يسلم به كل إنسان . وهى فى غالب أمرها، مسائل خاصة : وتجارب ذاتية وشطحات روحية من الصعب تأييدها ، أو نقلها إلى الغير . ظل الأمر على هذا النحو حتى القرنين السادس والسابع الهجريين حينما جاء ابن تيمية ، فكان خاتمة لذلك الصراع الروحى الذى امتد طويلا بطريقة فكرية وفى بيان قوى ، ومما لا شك فيه أن الصراع لا يزال جاريا على أشده حتى يومنا هذا ولكن لم يأخذ قط بعد ابن تيمية مثل تلك الصورة القوية الفذة بحق . وهذا إن كان يدل على شىء ، فإنما يدل على أنه قد كان لنقده سبب تاريخى موروث ضمن العقيدة المذهبية التى كان يتشيع لها .

وعلى الرغم من أنه كان ينظر نظرة احترام وتقدير لبعض المتصوفة : كالغزالى وابن عربى وأبى الحسن بن سالم ، وعبد الله الأنصارى وعبد القادر الجيلانى كما يقول ماسينيون فى مادة تصوف بدائرة المعارف الإسلامية ولم يصفهما كما وصف غيرهما بالمروق من الدين ؛ فإنه لم يأل جهداً فى الحط من أقدار بعض المتصوفة الذين غالوا فى الاتجاه المخالف لاتجاه المدرسة الفقهية التى سار فى أثرها . ونحن نريد أن نكشف من هذا كله عن أثر دفين بنفسه للمذهب الذى شايعه ، وبتاريخه الطويل مما جعله يندفع فى هذا الاتجاه اندفاعا مؤيداً بالتعصب الدينى ، ومزوداً بالسلاح الفكرى اللازم .

أما السبب الثانى الذى كان يستوجب من

ابن تيمية كل هذه الثورة فيتصل اتصالا مباشراً بمسألة الصفات . وهي مسألة لها المحل الأول لدى مفكر إسلامى كابن تيمية ، فضلا عن أنها كانت الأصل فى كل خلاف نشأ بين الصوفية والفقهاء ، وموضع النزاع الدائم بينهما ولقد كان من المهم جداً بالنسبة إلى الإسلام أن يحدد موقفه من عقيدته فى الألوهية خاصة وقد جاء ليصلح أنظاراً دينية سابقة عليه وليبين الفساد فى بعض الآراء التى كانت معاصرة له . والواقع أن عقيدة الألوهية وما يتصل بها تعد من النقط الرئيسية فى كل دين خصوصاً فى الأوقات التى تعمل الفلسفة على تأييده فيها بالبرهان العقلى أو الفترات التى تنتاب الديانة فيها أزمات تدخل فى صميم العقيدة وابن تيمية من هذه الناحية متعصب لتعاليم الإسلام ، ومتمسك باعتقاد النبى عليه السلام نفسه فى الإله . فهو كما وصفه لاووست Laoust فى كتابه المسمى باسم Essai sur lesDoctrinesSociales et Politiques d'Ibn Taymia. ص ١٥٥ : يؤمن بوحدة الله وبأنه ذات تتعالى عن التحديد الوصفى ، وتسمو على القياس العقلى ، وموقفه هذا مستمد من الآيتين : « قل هو الله أحد » « ليس كمثله شىء » يضاف إلى هذا : أن القرآن يصف الله : بأنه قد استوى على العرش ، ويذكر الحديث عنه أنه ينزل كل ليلة إلى سماء قريبة ؛ فيسمع صلاة الصالحين . فإذا اعتمد ابن تيمية على النص وأخذ بالإسناد التاريخى فيما يتعلق بمسألة الصفات فلا بد له — وهو الرجل المسلم الحنبلى — أن يدافع عن مبدأ واحد ، هو مبدأ « وحدة الذات الالهية » ، ولا ينفى هذا بطبيعة الحال تعدد مظاهر قوته ، ولا يتعارض مع الكثرة ، أو التسلسل التدريجى ؛ فالله واحد الذات ، متعدد الآثار فى آن معا . وفى القرآن يتكلم عن نفسه أحيانا بقوله : أنا ، وأحيانا أخرى بقوله : نحن . فالذات واحدة إذن أما الصفات فكثيرة ، (ونحن) هى بعض التعظيم ، فالواحد المعظم لنفسه يستعمل نحن .

وهذه نقطة حساسة جدا فى فهم ابن تيمية للصفات ، وأكره شىء إلى قلبه أن يوجد من المسلمين من ينكر الصفات على نحو ما فعل جهم من قبل ، أو كما يفعل القائلون بالاتحاد أو الوحدة ، وحين فضل ابن عربى على بقية أصحاب الاتحاد ، وميزه منهم ؛ لم يكن مدفوعا إلى هذا إلا لأن ابن عربى كما جاء فى مجموعة الرسائل والمسائل (فى ص ١٧٦) يفرق بين الظاهر والمظاهر ، وأول خطر أحسه ابن تيمية فى كلام الصوفية إنما عينه من وجهه النظر هذه ، فصفات الله عنده هى صفات الكمال سواء بسواء إذا قيست بالنسبة إلى الله نفسه ، أو إلى الخلق ، وهذا الكمال القدسى لا يتفق مع وجود درجات

فى الصفات ، أو مع قول باختلاف فى قيم هذه الصفات ، ولذلك تراه يقول (ص ٢٦ ج ٤) : مذهب هؤلاء الاتحادية كابن عربى وابن سبعين والقونوى والتلمسانى مركب من ثلاثة مواد :

١ — سلب الجهمية وتعطيلهم .

٢ — مجملات الصوفية : وهو ما يوجد فى كلام بعضهم من الكلمات المجملة المتشابهة كما ضلت النصارى بمثل ذلك فيما يروونه عن المسيح فيتبعون المتشابه ، ويتركون المحكم .

٣ — وأيضا كلمات المغلوبين على عقلهم ، الذين تكلموا فى حال السكر . فتراه من ذلك يولى مسألة الصفات جل اهتمامه ، وتعد هذه النقطة لكثرة ما تحدث فيها محل البدء فى نقده ، والواقع أنه لم يكن فى هذه المسألة مبتكرا أو فيلسوفا بالمعنى الصحيح ، وإنما كان مقلدا للمدرسة الحنبلية بصفة خاصة تلك المدرسة التى قامت انتصارا للسنة ، والتزاما بحرفية القرآن . ومما يدلك على ذلك تلك الرواية المشهورة التى جاءت فى كتاب (العقيدة والشريعة فى الإسلام) بقلم جولد تسهير (ص ٩٧ من الترجمة العربية) من أنه ذكر فى عظة من عظاته نصا يتعلق بنزول الله ، فعمل على نفى أن يكون النص من المتشابه ، وعلى أن يشهر عيانا فهمه لنزول الله فنزل بعض درجات المنبر قائلا « كنزولى هذا ») فمن هذه الناحية يمكن أن ندخل ابن تيمية فى تلك الطائفة المسماة : بالمشبهة أو المجسمة . قد يظن البعض أننا نتعارض بهذا مع ما قلناه : من أنه يأخذ فى مذهبه بالآية القائلة « ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير » سورة الشورى (١١) ولكن نلاحظ دائما أنه كان يأخذ بهذه الآية على نحو ما فسرها محمد بن سعدون المعروف بأبى عامر القرشى إذ يقول : « معناها ألا يمكن أن يقارب الله أحد فى الألوهية ؛ أما فيما يتعلق بالهيئة والصورة فهو مثلك ومثلى » وهذا تفسير يتفق تماما مع رغبة ابن تيمية فى تصوير الله بأنه غير عاجز كما تصوره الفلاسفة ، وغيرها فى الوجود المرئى كما تصوره الصوفية .

ونتكلم الآن عن السبب الثالث الذى دفع ابن تيمية إلى اتخاذ هذا الموقف . والحق أن ابن تيمية عاش فى فترة لم يكن فيها الإسلام بخير ، ولم تكن الفرق الصوفية جديرة باعتبار واحترام . ففى عهده بدأت الطرق الصوفية فى الانتشار وبدأت الخانقاوات والزوايا فى الزيادة بصورة لم تحصل من قبل ، كما تعددت ألوان المنشآت الإخوانية . ولم يكن النشاط الصوفى قاصرا على المجال الجمعى وحده ، وإنما كان يمتاز فى وقته بجانب فردى تمثل فى اتخاذ بعض الأفراد خطة خاصة فى الحياة

وأسلوبا معينا فى السلوك، جعلوا به من أنفسهم صوفية من طراز متوحد .

ولقد عرف الإســـلام من قبل ضروبا مختلفة من التصوف أهمها وأميزها وأقربها إلى روح الإسلام وأحبها لفعل الخير هو ذلك التصوف المنظم كما كان عند الغزالى الذى عارض الطقوس المذهبية ، والأمور الشكلية لدى رجال الدين ، واتخذ من حب الله وحده دافعا إلى النقاوة والطهر والصفاء . ولكنه لم يعرف شيئاً من هذه الروح الخبيثة التى بدأت تندس فى أنحاء مختلفة من أقوال الصوفية فى عهده وأعمالهم المتصلة بجملة عقائدهم ، ونلخص أظهر المساوىء التى امتـــازبها تصوفهم فى النقط الآتية :

أولا : حوروا فى الأسس التقليدية للشريعة الإسلامية بصورة مزعجة إذ قد كانت الشهادة على هذا النحو « لا إله إلا الله » فتحولت على أيديهم إلى هذه الجملة : ليس إلا الله .

ثانياً : وكان مما أثار غضب ابن تيمية أنهم مزجوا بين التصوف والخزعبلات ، كما يقول لاووست فى وصف حالة الصوفية فى الفترة التى عاصرها ابن تيمية (ص ٢٩) فنهم من كان يعد الرقص أنشودة روحية تقتاد النفس إلى النشوة والسكر وتفتح للبعد سبيلا للاتصال بالله . ومن هذه الفرق الأحدية والرفاعية واختص أعلامهم فى عرض الخـــوارق والمعجزات على مشهد من الأمراء .

ثالثا : تتصل الصوفية فى واقع الأمر بالميول الإسلامية الشعبية وتغذيها ، ومن ثم تمكن أصحابها من إقناع العامة بأنهم فى مرتبة الأنبياء ، وأن النبي هو قائدهم الأعلى ورئيسهم الأكبر . ومن هنا سادت بين الناس فكرة الاحتفال بالمولد ، وصارت مرضاة الله بين يدى الشيخ أو السيد أو الولى .

رابعاً : أدت حالات الزهد والانقطاع بالكثيرين من الأولياء إلى تفضيل الغلمان على النساء عند الأداء الجنسى ، كما أن منهم من بقى فى حال العزوبية التى تتعارض مع الدين الحنيف . (لاووست ص ٢٨) .

خامساً : يمثل التصوف على النحو الذى شاهده ابن تيمية فى عصره انحلالا ظاهرا فى العقيدة الموروثة ، ويتيح للعناصر النصرانية من جهة ، واليونانية من جهة أخرى ، أن تتدخل فيما هو من أصول الدين الإسلامى . ولم يكن بد من أن يعلن ابن تيمية سخطه على هذه الفئة التى تضال المسلمين ، وتفسد الإيمان على أهله بحيث تسلمهم فى النهاية إلى الأمراض الاجتماعية الفتاكة التى تجعل منهم فريسة لكل طامع سياسى ، وذلك بعد البساطة الروحية التى امتازوا بها ، والقوة الدنيوية التى كانوا عليها . (البحث بقية)

عبد الفتاح الديدى